دعوة إلى التوبة في بداية العام[1]

فيما نحن نبدأ عامًا جديدًا، علينا أن نبدأه بقلب جديد، وفكر نقي، وسلوك بعيد عن أخطاء الماضي. وهذا يقودنا حتمًا إلى التوبة. وقبل أن ندخل في هذا الموضوع بالتفصيل، يهمنا أن نوضح:

ماهي التوبة؟

التوبة هي يقظة روحية. لأن الخاطئ هو إنسان غافل، لا يدرك تمامًا ما هو فيه، ولا يعرف إلى أين تقوده أخطاؤه. إنه مثل كرة تتدحرج من على الجبل، وبسرعة، وقوة تدفعها إلى أسفل وتظل هكذا تهبط وتهبط، إلى أن تصطدم بحجر كبير فتتوقف... وحينئذ تسأل ذاتها، إلى أين أنا ذاهبة؟! هنا التوبة التي توقفها فلا تنحدر أكثر...

إذن التوبة هي صرخة من الضمير، وثورة على الماضي في اشمئزاز يرفض السقوط السابق، ويستحي ويخزى... التوبة هي تغيير لحياة الإنسان وسلوكه. ليست هي انفعالًا وقتيًا نحو الله. إنما هي تغيير جدي وجذري في الفكر والقلب وفي المعاملات، بحيث يشعر كل من يتعامل مع هذا التائب، أن حياته قد تغيرت، وكذلك طباعه وأسلوبه في الحديث. وأصبح رافضًا عمليًا لكل خطاياه السابقة... وأفكاره صارت من نوع آخر لذلك قيل عن التوبة إنها تجديد للذهن.

التوبة هي الرجوع إلى الله

هي اشتياق قلب أبعدته الخطية عن الله، فانفصل عنه، ثم شعر أنه لا يستطيع أن يبعد أكثر. فكان لزامًا عليه أن يرجع... ومادامت الخطية هي خصومة مع الله، تكون التوبة هي الصلح معه، ومع الملائكة وأرواح القديسين.

لذلك قيل إن التوبة هي استبدال شهوة بشهوة هي شهوة للحياة مع الله، بدلًا من شهوة العالم والمادة والجسد.

والتوبة هي استجابة من الإنسان لدعوة الله إليه... إنها استجابة من الضمير لصوت الله فيه. وهي استجابة من الإرادة لما يحثها الضمير عليه. بل هي استجابة من الإنسان بصفة عامة لعمل النعمة معه في قيادته إلى الخير وإبعاده عن كل خطأ...

التوبة هي فرصة لصفحة جديدة، يفتحها الله في علاقته معك. فيها يغفر له الماضي كله. إنها فرصة تقوي فيك الرجاء، وتبعد عنك اليأس مهما ساءت الحالة أو طال السقوط...

التوبة هي باب الرحمة، وباب الغفران:

إنها جسر يوصل بين الأرض والسماء. وهي سبب فرح في السماء وعلى الأرض. فرح في السماء عند الملائكة وأرواح القديسين بعودة التائب إلى الله. وفرح على الأرض للتائب وأهله وكل المجتمع المحيط به وفي نفس الوقت هي عذاب للشيطان الذي يحاول عرقلتها. ذلك لأنها تخلص وتعتق المسبيين الذين سباهم بشره. ولأن تعبه الذي تعب به في سنين عديدة، تضيق التوبة منه، لقد زرع الشوك في أرضنا خلال زمن طويل. وإذا بالتوبة تحرقه في يوم واحد، وتطهر الأرض.

*** التوبة هي حياة الانتصار وأنشودة الغالبين.**

وهي بداية الرحلة التي يقطعها الإنسان في طريق الطهر والنقاء.

دعوة إلى التوبة:

* ليتك تستجيب أيها القارئ العزيز إلى نداء التوبة في هذا العام الجديد. ولا تظن أنك في غير احتياج إلى التوبة بحجة أنك بعيد عن كل ألوان الخطأ. حقًا، إن الذي لا يرى أنه محتاج إلى التوبة، هو شخص لم يفحص ذاته جيدًا.

* لذلك يلزم لكل منا أن يجلس إلى نفسه في بداية هذا العام، ويحاسب نفسه بكل دقة، وبلا مجاملةٍ، وبلا أعذار وتبريرات، لكي يكتشف ما يحتاج إليه من تغيير، ليصل إلى ما هو أفضل...

* وإن كان أحد لا يخطئ بالفعل، فربما يجد أنه يخطئ أحيانًا بالفكر، أو بالنية، أو بمشاعر القلب. وكل هذا يحتاج أيضًا إلى توبة. لأن الإنسان البار، يجب أن يشمل البر فكره وقلبه ونياته. والنقطة الأولى إذن في طريق التوبة، هي الرغبة في التوبة لأن كثيرين لا يريدون أن يتوبوا. بل يجدون لذة في خطاياهم تدعوهم إلى البقاء فيها. أو أن طباعهم جميلة في أعينهم لا يحبون أن يغيروها... لهذا فإن مجرد الرغبة في التوبة، هي نقطة حسنة تتلقفها النعمة وتعمل عملها في الإنسان، وتدفعه إلى ترك الخطية. وأهم من ترك الخطية بالفعل، هو التخلص من شهوتها: فقد يوجد إنسان لم ينتقم لنفسه مطلقًا ممن أساءوا إليه. ولكن شهوة الانتقام في قلبه، لم يتنق منها بعد. وربما يحنّ إلى هذه الشهوة. وقد يندم على فرص معينة كان يمكنه فيها أن ينتقم ولم يفعل! مثل هذا الشخص، ربما ترك الخطيئة لمجرد إطاعة وصية الله، وليس لأنه يكرهها...! والمفروض أن يتدرج في حياة النقاوة، حتى تنتزع هذه الخطية وكل خطية من قلبه. لذلك قيل إن كمال التوبة هو كراهية الخطية أي أن يصل إلى الوضع الذي يكره فيه الخطية من كل قلبه، بحيث يشمئز منها، ولا يحتاج إلى بذل أي مجهود في مقاومتها إن عرضت له. ذلك لأنها لم تعد تتفق مع طبيعته النقية. مثال ذلك يوسف الصديق الذي سعت الخطيئة إليه وألحت عليه، فرفض وهرب منها... على أن ترك الخطية التي تحارب الإنسان، حتى كراهيتها... تأتي بعدها خطوة أخرى وهي:

ترك الخطايا التي تتكشف له بالنمو الروحي:

ذلك لأن الله تبارك اسمه من فرط حنوه علينا- لا يشاء أن تنكشف لنا كل خطايانا وضعفاتنا دفعةً واحدة، حتى لا نقع في صغر النفس. وإنما كلما نسمع عظة روحية، وكلما نقرأ في كتاب الله وفي الكتب الروحية، تتكشف لنا ضعفات في أنفسنا، وتقصيرات تحتاج إلى علاج وإلى توبة. وهكذا ندخل في عملية تنقية للذات قد تستمر مدى الحياة. إذن هناك توبة عن النقائص التي يكشفها النمو ولا تقتصر فقط على محاربة السلبيات التي هي فعل الخطايا. علينا أن نعرف أن الشيطان في محاربته لنا، قد يترك ميدانًا يحاربنا فيه لكي يتحول إلى ميدان آخر. فعلينا أن نكون مستعدين له في كل الميادين. حتى الخطية التي نكون قد استرحنا منها فترة، قد يعاود قتالنا فيها. وبهذا فإن التوبة ليست مرحلة من حياتنا وتنتهي، وإنما هي تستمر معنا. وهكذا تصبح عملًا يوميًا يلزمه حرص دائم حتى لا نخطئ. فلنصلِ أن يمنحنا الرب قوة في هذا العام لكي نفعل باستمرار ما يرضي صلاحه. ولتكن نعمته عاملة مع جميعنا.

---

1. مقال لقداسة البابا شنوده الثالث نشر في جريدة الأهرام بتاريخ 31-12-2006م